Journal d'Hérodote des sciences humaines et sociales	*Volume10/ N°:02 (2026), p 168-157*

جيش المرتزقة في الدولة الخوارزمية 590 هـ -1193 م/ 628 هـ – 1231 م

The Mercenary Army in the Khwarazmian State
(590 AH / 1193 CE – 628 AH / 1231 CE)

د.حمزة حاجي
جامعة الدكتور يحي فارس (الجزائر)
البريد الالكترونيalihamza.his1984@gmail.com

تاريخ الاستلام: ...05/13../2026. **تاريخ القبول: ..07/05..../2026.**

- **الملخص:**

يتناول المقال ظاهرة جيش المرتزقة في الدولة الخوارزمية (590–628هـ / 1193–1231م)، مسلطًا الضوء على دوره في صعود الدولة وسقوطها. يبرز البحث أن الدولة الخوارزمية نشأت في سياق ضعف الخلافة العباسية وتفكك السلطة السلجوقية، واستندت في قوتها إلى جيش متعدد الأعراق، يغلب عليه الطابع التركي. وقد لعب هذا الجيش دورًا مهمًا في توسيع نفوذ الدولة والدفاع عن حدودها الشرقية، خاصة في مواجهة القوى الإقليمية والمغول. غير أن الاعتماد المتزايد على العناصر العسكرية غير المرتبطة عضويًا بالدولة، والتي اتسمت بسمات المرتزقة، أدى إلى ضعف الانضباط العسكري وتفشي ظواهر السلب والنهب، مما أضر بعلاقة الدولة مع رعاياها ومع القوى الإسلامية المجاورة. كما ساهمت الصراعات الداخلية، وسوء الإدارة السياسية والعسكرية، وتفكك الولاءات داخل الجيش، في إضعاف القدرة الدفاعية للدولة أمام الغزو المغولي. ويشير المقال إلى أن جلال الدين منكبرتي، رغم مقاومته الشديدة، لم يتمكن من تجاوز هذه الاختلالات البنيوية. وبعد سقوط الدولة، تحول الجنود الخوارزميون إلى قوى مرتزقة في خدمة دول أخرى كالأيوبيين، مما يعكس استمرار دورهم العسكري خارج الإطار السياسي السابق. ويخلص المقال إلى أن ظاهرة المرتزقة كانت عاملًا حاسمًا في تقويض استقرار الدولة الخوارزمية وتعجيل انهيارها.

كلمات مفتاحية: الدولة الخوارزمية – جيش المرتزقة – جلال الدين منكبرتي – الغزو المغولي – السلب والنهب – التفكك العسكري

Abstract:

Enter your abstract here (Time New Roman 10)

This article examines the phenomenon of mercenary forces in the Khwarazmian state (1193–1231 CE), highlighting their role in both its rise and decline. It argues that the Khwarazmian military, largely composed of Turkic elements, was instrumental in territorial expansion and defense, particularly against regional powers and the Mongols. However, increasing reliance on loosely affiliated troops led to weak discipline, widespread plundering, and deteriorating relations with both the population and neighboring Muslim states. Internal conflicts, poor political and military leadership, and fragmented loyalties further undermined the state's defensive capacity. Although Jalal al-Din Mangburni demonstrated strong resistance, he failed to overcome these structural weaknesses. After the collapse of the state, Khwarazmian soldiers continued to operate as mercenaries, notably in Ayyubid service. The study concludes that the mercenary nature of the army was a decisive factor in destabilizing and ultimately accelerating the fall of the Khwarazmian state.

Keywords:

Khwarazmian State – Mercenary Army – Jalal al-Din Mangburni – Mongol Invasion – Plunder – Military Fragmentation

مقدمة :

لقد كانت دولة الخوارزميين (التي امتدت من 490 هـ حتى 628 هـ) كيانًا مستقلاً عن سلطة الخلافة العباسية، وتُعد واحدة من الدول الإسلامية البارزة التي برزت في منطقة آسيا الوسطى خلال العصور الوسطى. وقد حملت على عاتقها دورًا جوهريًا لم يُعطه الأهمية الكافية، وهو حماية الجناح الشرقي للعالم الإسلامي. تمكنت هذه الدولة من الحفاظ على توازن القوى في المشرق الإسلامي بفضل جيشها المكون من مزيج من القبائل الآسيوية التي اعتنقت الإسلام آنذاك، وذلك قبل وقوع الغزو المغولي. وقد ترسخت استقلاليتها فعليًا في فترة ضعف قبضة السلاجقة (447-590هـ/ 1055-1194م). ويُعدّ جلال الدين منكبرتي، وهو سليل السلطان علاء الدين خوارزم شاه، من أبرز الوجوه التي أبدت صموداً راسخاً في وجه التحديات التي واجهت الدولة الخوارزمية. فقد تمكّن جلال الدين من مواجهة كافة القوى المعادية، فكانت له الغلبة على جيوش السلاجقة، واستطاع ضم الإمارات الأيوبية التابعة للأتابكة، وفرض سيطرته على إقليم جورجيا، كما شنّ هجمات عديدة على حصون الإسماعيليين. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه المساعي الجبارة، آل مصير جلال الدين إلى الموت إثر سلسلة من الهزائم المتتالية أمام المغول، الذين تجمعت قواهم تحت قيادة الخان الجديد أوكتاي، وبذلك اختتمت مسيرة جلال الدين لتختفي آثاره من المشهد التاريخي.

ومع ذلك، كان العسكريون الخوارزميون يرون بصيص أمل في تأسيس كيان لهم تحت إمرة قياداتهم الجديدة من ضباط الجيش، فانطلقوا في الأرجاء مقدمين عونهم لاسيما للأيوبيين وتحديداً للصالح نجم الدين الذي اعتمد عليهم لترسيخ حكمه. إضافة إلى ذلك، كان لهم بصمة في استعادة القدس بعد أن سعى الصليبيون لاستردادها. وعلى الرغم من كل هذه الإسهامات الإيجابية، يبقى التساؤل مطروحاً: هل يمكن اعتبار هؤلاء الجنود الخوارزميين (الذين كانوا بمثابة مرتزقة) ضمن القوى المزعزعة للاستقرار؟

أولا– الدولة الخوارزمية:

1- نشأتها:

برزت الدولة الخوارزمية ضمن مسيرة التاريخ الإسلامي بفعل سلسلة من المضاربات والأحداث التاريخية المتلاحقة والمتشابكة؛ إذ تزامنت نشأتها مع بزوغ الدولة العباسية نفسها، علاوة على ذلك، كانت ولادتها استجابة للتحولات الفكرية والاجتماعية التي عصفت بشرق آسيا وغربها[1]، مما لا شك فيه أن الزعماء ذوي النفوذ من آل العباس، حينما تداولوا في تأسيس دولتهم العباسية، رسموا لأنفسهم مسارًا مختلفًا تمامًا عن درب الخلفاء الراشدين والأمويين؛ حيث مالوا نحو المكون الفارسي، واعتقدوا أن متكئين على هذا العنصر المستحدث لتشييد ملكهم، سيضمنون لأنفسهم مجدًا لا يزول.

إلا أن سطوة العباسيين تضاءلت شيئًا فشيئًا أمام المد الفارسي المتصاعد، الذي كاد أن يبيد كيان الخلافة العباسية وقوتها. وعندما أدرك العباسيون أن قوتهم تراجعت أمام النفوذ الفارسي، استنجدوا بعنصر آخر أقوى منهم، ألا وهو العنصر التركي، الذي لم يطل به الأمر حتى سيطر على شؤون دولتهم وإذلال الخلفاء وطمس هيبتهم. ولو أن هؤلاء الأتراك لم يكونوا بحاجة ماسة إلى الخلافة

[1] أحمد حمدي حافظ، **الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية**، دار الفكر العربي، مصر، ب. س.ن، ص 22.

العباسية كمرجعية شرعية تسند سلطتهم، لكان من المؤكد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيديهم، ولحازوا لأنفسهم شرف إنهائها ذاته كما فعل المغول لاحقًا[1].

2–موقع الدولة الخوارزمية : 590 هـ –1193 م/ 628 هـ – 1231 م:

توافق علماء الجغرافيا المسلمون على رسم حدود منطقة خوارزم؛ إذ حددوها غربًا بأراضي قبائل الترك الغُزّ، وهي منطقة تتوزع أراضيها اليوم بين جمهوريتي أوزبكستان وتركمانستان الإسلاميتين. أما من جهة الجنوب، فكانت تحدها خراسان. ويتموضع إقليم خوارزم في الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية بشكل عام، ويفصله عن بلاد ما وراء النهرين حد شرقي. وقد كانت خوارزم في السابق جزءًا من رقعة الدولة الإسلامية الشاسعة[2]، وفي فترة حكم المسلمين (التي شملت العصر الإسلامي الأول ثم العصر العباسي الثاني)، ظهرت تلك الدول التي نالت استقلالها عن الخلافة العباسية، ومن أبرزها: الطاهريون، والسفاريون، والسمانيون، والغوريون، والغزنويون، بالإضافة إلى السلاجقة[3].

نشأة الدولة الخوارزمية تتلاقى بشكل وثيق [4] مع دولة السلاجقة التي كانت مسيطرة آنذاك. فمؤسس تلك الدولة، المدعو "أنوشتكين"، كان مملوكًا لأحد أمراء السلاجقة في العام 490 هـ[5] ، ثم ارتقى في سلك المناصب حتى صار واليًا على منطقة خوارزم، حيث اكتسب لقب "خوارزم شاه". وعندما أحسّ ورثة أنوشكين بتراخي قوة السلاجقة، انصرفوا إلى السعي نحو الانفصال عن سيطرتهم، وما أن تولى السلطان (لكشن) سدة الحكم في خوارزم حتى بسط نفوذه وجعله أوسع[6]، (568 – 596هـ/ 1172– 1199م) وقد أضاف رقعة جديدة إلى إمبراطوريته، عقب إخضاعه لـ طغرل الثالث ابن ألب أرسلان، الذي كان آخر ملوك السلاجقة في أرض العراق.

تمتع الخوارزميون بوجود مؤثر وقوي، وامتد نفوذهم من الأراضي الإيرانية وصولاً إلى ديار الخطا، وذلك عقب تفتت سلطة الدولة العباسية. أما مؤسس هذه الدولة فهو أنوشتيكين (الذي عاش بين عامي 470 و 490هـ، الموافق 1077م و 1092م)، والذي كان في الأصل من المماليك التابعين للسلطان السلجوقي ملك شاه حاكم إيران (بين 465 و 485هـ / 1072 و 1092م). لقد كان أنوشتيكين مملوكاً اشتراه أحد القادة السلاجقة من منطقة جورجيا، ثم تولى مهمة "الطشدار"، قبل أن يتم تعيينه والياً على إقليم خوارزم (عام 490هـ / 1096م)، وحصل لاحقاً على لقب "خوارزم شاه". شيئاً فشيئاً، بدأت دولة الخوارزم بتوسيع رقعتها على حساب المناطق المحيطة بها، لتصل إلى أقصى حدودها تحت قيادة السلطان جلال الدين محمد خوارزم شاه. لم يمض وقت طويل حتى خاض هذا السلطان مواجهات ضارية ضد الغوريين، الذين كانوا يقيمون في شرق خراسان (أفغانستان الحالية وغرب الهند)، وكانت مدن مثل هراة وغزنة وبلخ وكابل وسجستان وكرمان تابعة لنفوذهم. وقد آلت تلك الاشتباكات إلى انتصار السلطان محمد خوارزم شاه وهزيمة الغوريين، بعد أن حصل على دعم وتحالف من القراخطائيين[7]، بأمرٍ مباشر من الخليفة الناصر لدين الله، وتحديداً في العام خمسمئة وخمسين للهجرة (الموافق للعام

---

[1] نفسه، ص 22، يتمثل النفوذ الفارسي في نفوذ البرامكة وظهور النفوذ التركي منذ عهد المعتصم، كما يتمثل عهد البويهيين والسلاجقة فيما بعدهم.

[2] نافع توفيق العبود، **تاريخ الدولة الخوارزمية**، بغداد،1987م، ص 18

[3] الفقي عصاد الدين عبد الرؤوف، **الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي**، دار الفكر العربي، القاهرة 1999، ص 159

[4] عفاف السيد صبره، **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية**، ط.1، دار الكتاب الجامعي، مصر، 1987م، ص35

[5] ابن الأثير علي بن أحمد بن أبي الكرم المعروف بابن الجزري(ت.630هـ/1238م)، **الكامل في التاريخ**، ج.11، بيروت ،1980م ص184.

[6] الخالدي اسماعيل عبد العزيز، المرجع السابق ص 47، محمود سعيد عمران،**المغول وأوربا** ،دار المعرفة الجامعية،مصر،ب.ت، ص 17

[7] الخالدي اسماعيل عبد العزيز، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص 48.

1154 ميلادي)، تم إرسال رأسه الشريف إلى بغداد[1]، إثر كل تلك الانتصارات التي تحققت، نالت الدولة الخوارزمية اعترافًا رسميًا بهذه الأراضي من قِبَل الخلافة العباسية، وكان ذلك في عام خمسمائة وخمسة وتسعين هجريًا، الموافق لعام ألف ومئة وتسعة عشرة ميلاديًا.

سعى محمد خوارزم شاه جاهداً لنيل المكانة العليا في بغداد عبر المساعي الودية أولاً. وعندما لم يجدِ النفع في ذلك، تحوّل إلى استخدام القوة واتخذ قراراً بشن حملة على بغداد. وكان السبب الرئيسي وراء هذا العزم هو الإهانة التي شعر بها من قبل الخليفة، الذي أساء معاملة رسله، وامتنع عن ذكر اسمه في خطب الجمعة في بغداد، خلافاً لما كان عليه الحال زمن السلاجقة والبويهيين[2] بهدف حشد تأييد المسلمين للخليفة ودفعهم لنصرته، صرّح السلطان محمد خوارزم شاه بأن الخلفاء المنتمين للعباسيين قد توانوا عن الجهاد وأهملوا حراسة الثغور، كما أنهم لم يتمكنوا من إخماد الاضطرابات، وزعم أنهم يغتالون حق الخلافة. ولتعزيز قاعدته المؤيدة، تبنى أفكار المذهب الشيعي[3].

أضمر السلطان محمد خوارزم شاه العزم على غزو بغداد في عام (614هـ /1217م)، وذلك بعدما تمكن من القضاء على عدد كبير من الموالين للخليفة الذين كانوا يحيطون به. وقد بائت محاولات شهاب الدين السهروردي لإثناءه عن قراره بالفشل. ومع ذلك، تعرض جيشه لعواصف ثلجية قاسية في منطقة أسد أباد استمرت لثلاثة أيام متواصلة، مما ألحق بالجنود أضرارًا بالغة ومعاناة لا يمكن وصفها، وهو ما أدى إلى انهيار حملته بالكامل وتكبده خسارة فادحة[4].

كانت الصراعات التي خاضها جلال الدين منبرني، سلطان خوارزم، عاملاً رئيسياً في إضعاف القدرات الإسلامية بتلك البقعة الجغرافية. علاوة على ذلك، كانت تلك الممالك نفسها تحمل بذور التدهور والتفكك نتيجة لسيطرة الفئة العسكرية على مقاليد الأمور. وبالإضافة إلى ذلك، لم ينسَ الناس له واقعة إنهاء حياة محمد الدين البغدادي، الذي كان واحداً من أبرز شيوخ التصوف في ذلك الزمن. ولم يجد الفقهاء مفراً من إصدار فتوى مناهضة للخليفة، وهو أمر لم يكن هيناً عليهم بتاتاً.

أقدم علاء الدين محمد خوارزم شاه على تجزئة مملكته إلى أربع حصص، ووضع كل واحد من أبنائه الأربعة مسؤولاً عن حصة منها، بحيث يحاسب كل واحد منهم أمامه مباشرةً عن المنطقة الموكلة إليه. ووسط التحولات التي شهدتها الدولة الخوارزمية، تمكنت من النمو والاتساع لتغدو كياناً شاسع الأرجاء[5]. وهذا ما فصله حمدي حافظ في كتابه، فلم يكن بالأمر الهين أن يفرض علاء الدين خوارزم شاه سيطرته الكاملة على هذه المساحات الشاسعة ويضمن ولاءها لعائلته. ولهذا، آثر تقسيمها على ذريته، حيث صار لكل واحد من أبنائه الأربعة حكم منطقة معينة، وتولى كل منهم إدارة المقاطعة التي خصصت له. ولكن، كان الشرط الأساسي هو أن يظل الأب هو المرجع الأساسي لأي من هؤلاء الأبناء في حال واجهته معضلة أو عقبة. ونتيجة لهذا الترتيب، تجزأت الدولة إلى الأقاليم الأربعة التالية:

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11، ص 81، 82.

[2] ابن كثير الدمشقي عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر(ت774هـ/1372م)، **البداية والنهاية**، ج9، القاهرة ،1932م، ص 27.

[3] الخالدي، المرجع السابق، ص 49.

[4] الخالدي، المرجع السابق، ص 50.

[5] ابن واصل، المصدر السابق، ج.4، ص34.

1-الشقّ الشرقي من إمبراطورية الخوارزميين، والذي ضمّ مدينة غزنة التي كانت عاصمة لدولة الغوريين، وكذلك مدينة باميان المطلّة على نهر جيحون، بالإضافة إلى مناطق غربية من حوض نهر السند ينتزعها الخوارزميون من ممتلكات الغوريين، آلت ملكية هذا القسم إلى الابن البكر جلال الدين منكبرتي.

2- أما المناطق الشمالية التي تندرج تحت الدولة الخوارزمية، وهي خوارزم وخراسان ومازندران، فقد آلت في التقسيم إلى ابنه قطب الدين أزلاغ شاه.

3- جزء الدولة الخوارزمية المتمثل في المناطق الجنوبية، والذي يضم كرمان ومازندران، آلت ملكيته إلى ولده غياث الدين شير شاه.

4- نالت الأجزاء الغربية من إمبراطورية خوارزم، والمتمثلة في بلاد العجم، حصة ركن الدين غور شاه.

ومن الجدير بالذكر أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه، تحت وطأة تأثير والدته تركان خاتون التي كانت تحمل لابنها الأصغر أزلاغ شاه ميلاً خاصاً ومفضلاً على بقية الأبناء، قد أشار بتسليم الحكم له من بعده. بيد أن هذا التوجه لم يدم طويلاً، حيث تراجع علاء الدين فيما بعد عن قراره السابق، وقام بتنصيب ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي ولياً للعهد[1].

ثانيا–جيش المرتزقة ودوره في زوال الدولة الخوارزمية:

1/اضطراب الحالة الداخلية في الدولة الخوارزمية:

تعددت الأسباب التي أفضت إلى سقوط دولة الخوارزميين، ويعود جزء منها إلى وهن العالم الإسلامي الذي كان عليه قبل وصول الغزو المغولي. لقد تحول ذلك العالم إلى كيان مفتت الأجزاء، تنهشه الصراعات الداخلية والخارجية. علاوة على ذلك، لم توجد قوة مركزية قادرة على مقاومة المد المغولي الجارف عند زحفه عبر الأراضي الإسلامية.

لقد ساهمت مجموعة من الظروف المتردية في تفكك الإمبراطورية الخوارزمية وسقوطها، ويعود هذا الاضطراب إما إلى التوترات السياسية والاجتماعية الداخلية التي عانت منها الدولة نفسها، أو إلى القصور الذي شاب الهياكل العسكرية التي اعتمد عليها الخوارزميون[2].

تعزى علة الانتكاسة التي مُني بها جلال الدين خلال تلك الحقبة التي شهدت هجمة مغولية جديدة على ديار الخوارزميين إلى ما يراه ابن الأثير تقصيراً في الإدارة اتبعها جلال الدين منذ رجوعه من الأراضي الهندية. فبدلاً من أن يعمل على رأب الصدع وتجميع القوى الإسلامية وكسب ود الدول المجاورة لدعم موقفه ضد الغازي المغولي، وبدل أن يسعى لكسب ود شعبه كي لا يتزعزع ولاؤهم، قام بالاعتداء على ممتلكات الخليفة وتلك التي تعود للأمراء المسلمين في منطقة ما وراء النهر[3].

---

[1] حمدي أحمد حافظ، المرجع السابق، ص27

[2] حمدي حافظ ن الدولة الخوارزمية، ص235

[3] النسوي، المصدر السابق، ص356-357.انظرابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص.393

2-السلب والنهب في جيش المرتزقة:

بعدما استتبت الأوضاع للسلطان جلال الدين منكبرتي، شرع في الإعداد للقضاء على الخلافة العباسية، معتقداً أنها كانت السبب وراء سقوط دولة أبيه بيد المغول. وبالفعل، اتجه بجنوده نحو خوزستان، التي كانت تابعة للخليفة العباسي الناصر لدين الله (الذي حكم بين عامي 575هـ و 622هـ). وفي شهر محرم من عام 622هـ، حاصر جلال الدين مدينة "تستر"، التي كان يتولى الدفاع عنها مملوك للخليفة يُدعى مظفر الدين، المعروف بـ "وجه السبع". تمكن هذا المملوك من الصمود أمام الحصار العسير الذي فرضه جلال الدين على المدينة. وحيثما فشلت قوات جلال الدين في إخضاعها، تحولت لشن الغارات والنهب في الأراضي والقرى المحيطة بها، كـ "باداريا" و"باكسايا"، ووصلت عملياتهم التخريبية حتى تخوم البصرة. لم يتمكن جيش الخليفة، بقيادة الأمير جمال الدين قشتمر، من إيقاف تعديات عسكر خوارزم على أراضي الخلافة العباسية. لاحقاً، اتجه جلال الدين نحو "بعقوبا" و"دقوقا"، حيث مارس القتل والنهب والسلب، مقلداً أسوأ ممارسات المغول[1].

اندفع جلال الدين بجيشه نحو "خلاط"، وبلغوا أسوار المدينة، واحتدم القتال بين عساكره وأهلها بشدة، مما أوقع خسائر فادحة في صفوف أهالي "خلاط". بعد ذلك، تقدم جلال الدين بجيشه نحو الضواحي (الربض)، حيث أحدثوا فيها الخراب والنهب والسبي للنساء، وهو ما أشعل نار الغيرة في قلوب أهالي "خلاط"، فحثّ بعضهم بعضاً على المقاومة. خرج الأهالي لمواجهة جيش جلال الدين وخاضوا معهم معركة تمكنوا فيها من طرد العسكر من المدينة بعد سقوط عدد كبير من القتلى من الجانبين. في خضم ذلك، أسر جنود جلال الدين نخبة من أمراء خلاط. بعد أن أخذ جلال الدين قسطاً من الراحة لبضعة أيام، شن هجوماً آخر على خلاط. واجه هجومه هؤلاء الأهالي الذين أبدوا إصراراً عظيماً في الدفاع عن أنفسهم، ممانعةً منهم في الوقوع أسرى لجيش الخوارزميين، فكان قتالهم دفاعاً مستميتاً عن النفس والأهل والمال. لم يتمكن جلال الدين من اقتحام مدينة خلاط بسبب شدة دفاع أهلها وصمودهم، وتفاقم الوضع بسبب قسوة البرد وتساقط الثلوج، بالإضافة إلى ظهور التركمان الإيوانية ضده. وعلاوة على ذلك، استجاب جلال الدين لطلب المعظم بالانسحاب من خلاط تلبيةً لطلب الأشرف، فرحل عنها يوم الثلاثاء الموافق لسبع بقين من ذي الحجة عام 623هـ (ديسمبر 1226م).

وإنني أرى أن العزيمة القوية لجلال الدين وجيشه في سعيهم للاستيلاء على خلاط لا يمكن أن تكون مبرراً كافياً للأعمال التخريبية والفساد التي صاحبت تلك الحملة، إذ تمثل تلك الأفعال اعتداءً صارخاً على مقدسات المسلمين وأعراضهم التي حرّمها الله إلا بإذن شرعي[2].

لم يكن السلطان جلال الدين يأمن جانحة بطانته من الأمراء والقادة، ولهذا السبب كان يصر على أخذ العهود والمواثيق منهم بعدم التخاذل والانسحاب من ساحة المعركة[3]،بالإضافة إلى ذلك، يعزو ابن الأثير سبب تدهور قوة جلال الدين في تلك الحقبة التي شهدت قيام المغول بشن هجوم جديد على الأراضي الخوارزمية إلى النهج السياسي الخاطئ الذي تبناه جلال الدين منذ رجوعه من الهند. فعوضاً

---

[1] عابد عبد الرزاق بن عبد الله الغريبي، **علاقة الدولة الخوارزمية بالقوى في بلاد الشام (624هـ-645هـ/1227-1247م)**،رسالة ماجستر،اشراف:محمد المنسي عاصي،قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية،،جامعة أم القرى ،السعودية ،1416هـ-19996م،ص59-60

[2] عابد عبد الرزاق بن عبد الله الغريبي، المرجع السابق، ص71-72

[3] النسوي ، جلال الدين منكبرتي ،ص233

عن أن يسعى لجمع الشمل الإسلامي وكسب وُد جيرانه ليكونوا سنداً له في مواجهة غزو المغول، وبدلاً من أن يكسب ود شعبه ليضمن ولاء السكان، قام بالاعتداء على ممتلكات الخليفة وممتلكات الأمراء المسلمين في منطقة ما بين النهرين[1].

جرى تناول المؤرخين بكثرة على أنهم كانوا سبباً في الفساد والهلاك وسفك الأرواح وانتهاك الحرمات في كل مكان حلوا به. وعلاوة على ذلك، ينبغي إيراد أن نزاعاتهم السياسية الداخلية مهدت الطريق بشكل فعلي للمغول من أجل تحقيق انتصارهم، مما أفضى إلى تحقق غاية المغول المتمثلة في إسقاط الخلافة العباسية عام 656هـ.

إضافة إلى تورط هؤلاء الخوارزميين في الاضطرابات السياسية التي عمت العالم الإسلامي في تلك الفترة، فقد انخرطوا أيضاً في التنافس الدائر بين أفراد الأسرة الأيوبية. هذا الصراع الداخلي لم يُسفر إلا عن توسع النفوذ الصليبي على حسابهم، وتكرار غاراتهم على أراضي المسلمين، ومهَّد الطريق لتقدم المغول. كان بوسع القوى الإسلامية كافة أن تتكاتف لطرد الصليبيين من ديارهم، بدلاً من عقد التحالفات معهم، أو الاستعداد لإيقاف المد المغولي الذي استولى على جزء كبير من الأراضي الشرقية، بما في ذلك ممتلكات الخوارزميين في منطقة الكرج، وأنهى سلطة سلاجقة الروم، مما أدى إلى زوال هذه الممالك الإسلامية المحورية التي اضطلعت بدور جوهري عبر التاريخ في صد التهديدات القادمة من القوى النصرانية والوثنية عن بلاد الإسلام[2].

3–ضعف النظام الحربي بسبب المرتزقة:

يشير بعض المؤرخين الذين عاصروا فترة حكم الدولة الخوارزمية إلى حقيقة مفادها أنه، رغم تأييد أغلب العامة والصفوة والمثقفين المنتمين للأتراك من مختلف الشرائح لتولي جلال الدين مقاليد الحكم خلفاً لأبيه ورغبتهم القوية في الانضواء تحت لوائه، فإن القوات التركية هي التي اضطرته إلى ترك جرجانية والانسحاب من منطقة خوارزم[3].

أرسل جنكيز خان جيشًا مغوليًا، قوامه زهاء اثني عشر ألف مقاتل، بهدف سحق جلال الدين الخوارزمي. وما إن بلغت هذه القوات أطراف غزنة، حتى تزامن خروج جلال الدين بجيشه لملاقاتهم. اندلعت المصارعة العنيفة في منطقة تُعرف باسم "بلق"، حيث اشتبكَ الطرفان بضراوة. وفي نهاية المطاف، منح الله النصر للمسلمين، وتكبد المغول الهزيمة، حيث قام المسلمون بقتلهم كيفما شاؤوا[4].

حينما أدركَ جينكيز خان بالأخبار المتعلقة بالهزيمة التي مُنيت بها قواته على يد جلال الدين منكبرتي، قام بتجهيز قوة عسكرية ضخمة تفوق سابقتها، وأسند قيادتها إلى أحد أبنائه. ورغم ذلك، مُنيت هذه الحملة أيضًا بخسارة كارثية على يد القوات الإسلامية تحت إمرة جلال الدين منكبرتي. لكن، أضواء الانتصار التي بدأت تتلألأ سرعان ما خفتت نتيجة للشقاق الذي استعر بين أمراء جلال الدين بخصوص تقسيم المغانم، بالتزامن مع تحضيرات جينكيز خان لخوض المعركة ضد الخوارزميين[5].

---

[1] نفسه، ص 356-357 انظر ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج. 9،ص393.

[2] عفاف سيد صبره، **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية**، ط1، دار الكتاب الجامعي، القاهرة،1407هـ-1987م، ص7

[3] نفسه، ص194

[4] ابن واصل ن مفرج الكروب، ج. 4، ص61-62 انظر السبكي أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت.771هـ-1369م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج.1 ،تح: :محمود الطناحي،وعبد الفتاح الحلون، القاهرة ،1964-1968م ، ص339

[5] ابن العبري غريغوريس المالطي(ت.685هـ/1286م)، **تاريخ مختصر الدول**، بيروت،1958م ، ص411.

إن الاستراتيجيات العسكرية والخطط الدفاعية التي وضعها الخوارزميون تحسباً للغزو المغولي شكلت سبباً محورياً في انتصار المغول. فإلى جانب الاعتماد على جيش خوارزمي يتألف أساساً من جنود أتراك، والذين كانوا يمثلون مصدراً للقلق وعدم الاستقرار داخل الدولة الخوارزمية، فإن هؤلاء المقاتلين لم يبدوا اهتماماً كبيراً بحماية هذه الدولة، تماماً كحال الجنود المرتزقة الذين يُعهد إليهم حماية قوم لا يمتون لهم بصلة. لقد كانوا يدركون جيداً أن أي انتصار يحققونه في المعارك لن يعود عليهم بفوائد جمة. أضف إلى ذلك، افتقار الجيش الخوارزمي إلى الانضباط والامتثال لأوامر القادة، فضلاً عن ضعف قدرتهم على تحمل المشقة، وهي سمات كانت تميز الجيش المغولي بشكل لافت. والأهم من كل ذلك، هو فقدان علاء الدين خوارزم شاه ثقة شعبه؛ لذا لم يشاركوه بوجدانهم في التأهب لمواجهة هذا التهديد الوشيك، ولم يسارعوا إلى الانضواء تحت قيادته، كما لم يقدموا له العون المالي الضروري لتمويل جنوده. هذا يضاف إلى عجز السلطان عن استدعاء أي من رعاياه للخدمة العسكرية متى شاء.

بخصوص الاستراتيجية العسكرية التي اعتمدها علاء الدين خوارزم شاه، والد جلال الدين منكبرتي، والتي كانت السبب في إخفاقه العسكري، فقد كانت استراتيجية خاطئة تماماً؛ حيث اختار تفريق الجيش وتشتيته بهدف الدفاع بدلاً من حشد قوة موحدة لمواجهة التتار. ونجد أنه قام بتوزيع وحداته العسكرية على المدن المتفرقة في إقليم ما وراء النهر. فعلى سبيل المثال، ترك عشرين ألف مقاتل في مدينة بخارى، وخمسين ألف جندي في سمرقند، كما أنه قام بإرسال مُحصّليه إلى مناطق الدولة الخوارزمية المتباينة لجمع الإيرادات منها[1].

ثالثا–جنود المرتزقة بعد وفاة جلال الدين منكبرتي:

بعد اندثار قائد الدولة الخوارزمية، جلال الدين، وسقوط أغلب مناطق خراسان وأرمينيا وخلاط تحت قبضة المغول، تفككت صفوف جيوشهم. نتيجة لذلك، تحولوا إلى مجرد مرتزقة يخدمون من يقدم لهم العرض الأفضل ماليًا، وفي خضم هذا الاضطراب السياسي، سعوا جاهدين لإيجاد طريق يُمكّنهم من استعادة جزء من مجد إمبراطوريتهم الغابرة وتحقيق طموحاتهم المتبقية.

يستهل لنا "واصل" مسيرته في مصنفه "مفرج الكروب" بالإشارة إلى أن حوالي اثني عشر ألف خيّال من عساكر جلال الدين انتقلوا لخدمة السلطان علاء الدين كيقباذ، طمعاً في توظيفهم كقوات مستأجرة في معاركه ضد خصومه، ومن بينهم "بركة خان" و"كشلوخان" و"صاروخان" و"فرخان" و"بردي خان". وباشر هؤلاء تحركاتهم انطلاقاً من مسرح عمليات علاء الدين كيقباذ، سلطان سلاجقة الروم، عندما استهلوا نزاعهم مع الأيوبيين[2].

وفي واقع الأمر، لقد قدّم هؤلاء الخوارزميون خدمات جليلة للخلفاء العباسيين؛ إذ يُروى أن الخليفة "المستنصر بالله" وظّف أربعة آلاف من فرسانهم في عام 631هـ الموافق لعام 1234م.

بحلول ذلك الوقت، كان الخوارزميون قد أساؤوا التصرف فيما يخص ثروات آل الصالح أيوب، وتحالفوا مع حاكم ماردين وشنوا هجومًا على حران. نتيجة لذلك، استولوا على ممتلكات وأموال ابنه الملك المغيث (المعروف بابن الصالح أيوب)، مما اضطره إلى الفرار من المدينة. لقد وصل إلى منبج طالبًا اللجوء لدى عمة والده، الملك الصالح، وهي والدة الملك العزيز.

---

[1] أحمد حمدي حافظ، المرجع السابق،ص236.

[2] عفاف سيد صبره، المرجع السابق، ص 272

غير أنها قابلت طلبه بأسلوب لائق، فتوجه "حران" بعدها حيث تلقى رسالة من الملك والده، الصالح أيوب، تحمل أمراً واضحاً: "وجوب التوافق مع الخوارزمية والالتقاء بهم" لكي يقفوا صفاً واحداً ضد بدر الدين لؤلؤ.

مع حلول هذا الوقت، شرعت الجيوش المعتمدة على الخوارزميات في إبرام ميثاق جديد مع الملك المنتصر، وقد أقسموا بالولاء للقاضي بدر الدين، الذي زارهم متعهداً بالوقوف إلى جانب الصالح أيوب وخلفه.

القضاء استقر عند بدر الدين، فمنحهم الخوارزمية أقاليمهم المتمثلة في حران وسنجار والرها، مما أدخل السرور إلى نفوسهم، فأقسموا بالولاء للملك الصالح.[1]

رابعا–نهاية المرتزقة الخوارزميين:

لقد قدم الخوارزميون خدمات عظيمة للملك الصالح نجم الدين أيوب، إلا أنهم واجهوا منعاً من معين الدين بن الشيخ حالما دخل دمشق، حيث لم يسمح لهم بالدخول إليها مع قواته. وبناءً على ذلك، صدر الأمر لهم بالتوجه نحو الساحل، وتم تزويدهم بمنشورات رسمية تثبت هذا القرار.[2]

يُعزى سبب ذلك لدى المسلمين إلى نفاد صبر الصالح أيوب تجاه الخوارزمية، إذ كان اعتقادهم السائد أن دمشق عند دخول السلطان إليها ستُقسَّم بالتساوي بينهم وبينه. إضافة لذلك، كان لديهم طموح كبير في الحصول على منح وهبات سخية كان الملك الصالح، وخصوصًا في مصر، حريصًا على تقديمها لهم. ولهذه الاعتبارات، اتخذ الخوارزمية قرارًا بالتمرد على الصالح أيوب، ورأوا ضرورة تشكيل تحالف يكون موجهًا ضده.

سار الجيش الخوارزمي وحلفاؤهم الأيوبيون نحو دمشق، ونفذوا ضدها اشتباكًا شرسًا. في تلك الفترة، كان شهاب الدين رشيد هو المسؤول عن قيادة قلعة المدينة، بينما كان حسام الدين أبو علي يتولى حكمها. المفارقة أن المدينة كانت تفتقر تمامًا إلى القوة العسكرية الكافية لصد الهجوم. ومع ذلك، بذل حسام الدين أبو علي قصارى جهده لحماية المدينة وتدعيم تحصيناتها، لكن الخوارزميين تمكنوا من عزل المدينة عن مصادر إمداداتها، مما أطال أمد الحصار. نتيجة لذلك، تفاقمت الأوضاع المعيشية وارتفعت الأسعار بشكل كبير، بالإضافة إلى انتشار الفتك والنهب، حتى أن الناس بدأوا بالهلاك نتيجة الجوع الشديد.

أسهب المؤرخون في بيان الوضع المتدهور الذي اجتاح مدينة دمشق، مشيرين إلى النقص الحاد في المؤن، والتفشي الواسع للموت بين السكان، وانتشار الأوبئة، إضافة إلى الروائح الكريهة المنبعثة من جثث المتوفين والتدهور الأخلاقي الذي ساد المجتمع[3].

ولهذا، رأى الملك العادل نجم الدين أيوب أهمية استخدام التكتيك واستقطاب بعض الأطراف الأيوبية المتصارعة. فاستقر رأيه على التواصل مع المنصور إبراهيم، حاكم حمص، وتمكن من إقناعه بالانضمام إليه لمواجهة التحالف الخوارزمي. علاوة على ذلك، أجرى اتصالات مع أهل حلب، وبعدها تجمعت تلك القوات مع جيش الصالح أيوب واتجهوا جميعاً نحو دمشق.

---

[1] عفاف سيد صبره ، المرجع السابق،ص276.

[2] عفاف سيد صبره،المرجع السابق ،ص 297.

[3] عفاف سيد صبري، المرجع السابق،ص297.

حين وصل الخبر إلى الخوارزمية وحلفائهم الأيوبيين بمسير الجيوش المصرية، اتفقوا على إنهاء الحصار المفروض على دمشق، مما أتاح للمدينة أن تستريح من وطأة الشدائد. دخل الصالح أيوب المدينة بعد ذلك، إلا أن الخوارزمية استمروا في ممارساتهم من نهب وسلب وإراقة للدماء وانتهاك للأعراض. لم يتوقفوا حتى وقع الاصطدام العسكري مع القوات الموالية لنجم الدين أيوب في موضع يُعرف بالقصب. عند هذا الموقع، مُنيت قوات الخوارزمية وحلفائهم الأيوبيين بهزيمة ساحقة، وقُتل قائدهم حسام الدين بركة خان على يد أحد غلمان الأمير سعد الدين بن الدريوش، الذي كان من أمراء حلب.

تفككت قوة الخوارزميين إثر تلك المعركة ولم يتمكنوا من التعافي، خاصة بعد تراجعهم إلى الديار الإسلامية حيث انخرطوا في أعمال النهب والتغيير والقتل، وذلك في فترة كانت الأمة الإسلامية بأمس الحاجة إلى التكاتف لمواجهة هجمات الصليبيين والمغول. تلا ذلك وفاة بركة خان، الذي كان أحد القادة الأربعة البارزين آنذاك.

أما بالنسبة للبقية من الخوارزميين، فقد آل حال بعضهم إلى الوقوع في الأسر، بينما لاذ آخرون بالفرار متجهين نحو التتار ملتحقين بهم. وشق نفر منهم طريقه نحو البلقاء متنصراً لخدمة الملك الناصر داود، حاكم الكرك، حتى أن الناصر قد أقدم على مصاهرتهم بالزواج.

سلكت شرذمة محدودة من القوم طريقها نحو نابلس، بينما اتجه آخرون إلى حران. وقد لحقت بعض العناصر بإسماعيل الصالح خلال مسير عودته في حلب، بيد أن الناصر، حاكم حلب، ألقى القبض عليهم.

وفي واقع الأمر، لم يكن أيوب الصالح راغبًا في أن يترك أي أثر للخوارزمية في دياره، ولهذا أصدر أمره لفخر الدين بن الشيخ بتجهيز قوة عسكرية سار بها نحو الكرك لمواجهة الناصر داوود ومن انضم إليه من الخوارزمية. وبالفعل، تحقق له النصر عليهم ومُزق شمل من كان معه من أفراد تلك المجموعة، إذ أرسل الناصر إليه طالبًا من كان عنده من الخوارزمية فأرسلهم إليه، فضمهم الصالح أيوب إلى عداد خدمه.

في خضم تلك الوقائع وخلال تلك الحقبة الزمنية، تلاشت الخوارزمية زائلة كما انقضت دولتهم سابقًا، ولم تستعد لها قائمة قط حتى أصبحت أمة منقرضة[1].

خاتمة :

لقد تبين أن الدولة الخوارزمية، رغم مساهمتها الجوهرية في انتشار الدين الإسلامي، لا سيما بين القبائل التركية البدوية، أمضت وجودها كدولة ذات طابع عسكري دائم، ساعية إلى زيادة رقعتها الجغرافية على حساب الدول المجاورة. وقد اصطدمت هذه الدولة بالخلافة العباسية، التي كانت تمثل المركز الأم للخلافة، وخاضوا صراعات طاحنة أدت في نهاية المطاف إلى تلاشي نفوذ العباسيين بشكل كامل من العراق الفارسي (العجمي)، ليصبح هذا الإقليم خاضعًا لسلطة الخوارزميين.

– وظَّف حكام الأيوبيين جموع المرتزقة من الخوارزميين لأجل ترسيخ سلطاتهم في مواجهة بعضهم البعض.

– كانت قوة جيش المرتزقة الخوارزمي تتجلى في كونه سنداً للمسلمين في مواجهتهم للصليبيين، بينما شكل نقطة سلبية ومسبباً للوهن في مواجهة المد المغولي الغازي.

– لقد كان من سمات القضاة المسلمين، وبشكل خاص حكام وسائر جنود الدولة الخوارزمية، إغفالهم التام لاعتراف بقيمة حرمات الأوطان والإنسان، وهو ما أفضى إلى أن يمتلئ قلوب عامة المسلمين بالضغينة تجاههم، وجعلهم يتطلعون إلى زوال سلطتهم.

[1] عفاف سيد صبره، المرجع السابق، ص299-300

– زالت الخوارزمية بالكامل من سجلات التاريخ، وأما من تبقى منهم، فقد التحقوا بالتيارات السياسية الحديثة، متجاهلين تمامًا انتماءاتهم الدينية أو مذاهبهم، وكذلك غاياتهم الأصلية.

المصادر والمراجع:

–ابن الأثير علي بن أحمد بن أبي الكرم المعروف بابن الجزري(ت.630هـ/1238م)، **الكامل في التاريخ**، ج9. ج.11،بيروت ،1980م

–ابن العبري غريغوريس المالطي(ت.685هـ/1286م)، **تاريخ مختصر الدول**، بيروت،1958م.

–ابن كثير الدمشقي عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر(ت774هـ/1372م)، **البداية والنهاية**، ج.، القاهرة ،1932م.

–النسوي شهاب الدين محمد بن أحمد المنشئ(ت.639هـ/1241م)، **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق**: أحمد حافظ حمدي، القاهرة،1953م

– السبكي أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت.771هـ-1369م)،**طبقات الشافعية الكبرى**،ج.1 ،تحقيق :محمود الطناحي،وعبد الفتاح الحلون، القاهرة ،1964-1968م.

–ابن واصل جمال الدين عبد الله بن محمد بن سليم (ت.697هـ/1297م)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ج.4تحقيق: جمال الدين الشيال ،القاهرة ،1960م.

– عفاف سيد صبره، **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية**، ط1، دار الكتاب الجامعي، القاهرة،1407هـ-1987م.

– نافع توفيق العبود، **تاريخ الدولة الخوارزمية**، بغداد،1987م.

– الفقي عصاد الدين عبد الرؤوف، **الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي** ، دار الفكر العربي، القاهرة ،1999م.

– عابد عبد الرزاق بن عبد الله الغريبي، **علاقة الدولة الخوارزمية بالقوى في بلاد الشام (624هـ-645هـ/1227-1247م)**، رسالة ماجستر، اشراف: محمد المنسي عاصي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، السعودية ،1416هـ-1996م.

–محمود سعيد عمران،**المغول وأوربا** ،دار المعرفة الجامعية،مصر،ب.ت،